

صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَام

عناصر الموضوع

١٧٨ التعريف بصالح عليه السلام

١٨١ ذكر صالح عليه السلام في القرآن الكريم

١٨٢ دعوة صالح عليه السلام

١٨٧ معجزة صالح عليه السلام

١٩٦ نجات صالح عليه السلام

١٩٨ الدروس المستفادة من قصته عليه السلام

التعريف بصالح عليه السلام

أولاً: اسمه و نسبه عليه السلام:

هو صالح بن عبد الله بن ملسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح^(١)، وقيل: صالح بن عبيد بن أنيف بن ماشخ بن جادر بن جاثر بن ثمود قاله: مقاتل، وقيل: صالح بن كانوه، قاله الربيع. وقيل: صالح بن عبيد بن يوسف بن شالخ بن عبيد بن جاثر بن ثمود، قاله مجاهد: قال مجاهد: كان بينه وبين ثمود مائة سنة وكان في قومه بقايا من قوم عاد على طولهم وهيئاتهم^(٢).

أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود، وهي قبيلة مشهورة، من العرب العاربة البائدة^(٣)، سموها باسم جدّهم ثمود أخي جديس من ذرية سام بن نوح، ويرى آخرون أن ثمود ابن عابر، أو جاثر أو جاثر بن إرم بن سام بن نوح^(٤)، وعمروا الأرض بعد عاد، كما بين ذلك القرآن حيث يقول حاكياً عن صالح يخاطب قومه: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]^(٥).

وديار ثمود بالحجر بين تبوك والمدينة^(٦)، في وادي القرى بين بلاد الشام والحجاز^(٧)، ولهذا عرف قومه بأصحاب الحجر^(٨)، قال سبحانه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

وتعرف الآن بمدائن صالح عليه السلام، وموقعها في شمال مدينة العلا، على بعد ٣٦٥ كيلو متر من المدينة المنورة عن طريق خيبر.

وجاء في الأثر: عن نوف الشامي: (أن صالحاً النبي صلى الله عليه وسلم من العرب لما

(١) البداية والنهاية، ابن كثير: ١/ ١٣٠-١٣١.

(٢) عمدة القاري، العيني ٣٣/ ٢٧٠.

(٣) انظر: تاريخ الطبري، ١/ ١٣٣، تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٨، البداية والنهاية، ابن كثير ١/ ١٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٥٢٤.

(٥) انظر: قصص القرآن، فؤاد عبدالغفار، ص ١٧١.

(٦) قصص الأنبياء، ابن كثير ١/ ١٤٥.

(٧) انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ٢/ ٢٥٥، مروج الذهب، المسعودي، ١/ ٤٢.

(٨) الحجر: كل ممنوع فهو حجر محجور، والحجر كل بناء بنيته و حجرت عليه من الأرض فهو حجر، ومنه سمي حطيم البيت حجراً.

انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٠٢.

أهلك الله عاداً، وانقضى أمرها عمرت ثمود بعدها، فاستخلفوا في الأرض فانتشروا، ثم عتوا على أمر الله، فلما ظهر فسادهم وعبدوا غير الله بعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعاً، وكانت منازلهم الحجر إلى قرع - وهو وادي القرى ثمانية عشر ميلاً فيما بين الحجر إلى الحجاز - فبعثه الله إليهم غلاماً شاباً فدعاهم إلى الله حتى شمت^(١) وكبر، ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فهلكت عاد وثمود ومن كان منهم من تلك الأمم، وكانوا من ولد لاوذ بن سام بن نوح، ولم يكن بين نوح وإبراهيم نبي قبله، يعني: قبل إبراهيم إلا هود وصالح^(٢).

ثانياً: زمان سيدنا صالح عليه السلام:

وظاهر سياق القرآن أن ثمود كانوا بعد عاد، كما صرح بذلك الترتيب في سورة الأعراف، وعلى هذا فهم قبل إبراهيم عليه السلام، وقد ورثت ثمود قوم عاد، كما ورثت عاد قوم نوح، وهذا الترتيب لهؤلاء الأقوام ورد في قوله تعالى: ﴿وَنَقَوْمَ لَاحِبٍ مِّنْكُمْ شِقَاقِ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

وقد وجدت بالحجاز أطلال، مدينة قديمة على بعد خمسة وأربعين ميلاً إلى الشمال الغربي من تبوك، ويظهر أن منشأ ثمود هو جنوب الجزيرة العربية، إلا أن مجموعة كبيرة منها انتقلت إلى الشمال في تاريخ مبكر واستقرت في منطقة الحجر. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ أي: بعد هلاكهم، وكانت ديار عاد بحضرموت جنوب الجزيرة العربية، وديار ثمود بالحجر شمال الجزيرة بمنطقة الحجر، يقول تعالى: ﴿وَتَنَحَّثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

تتخذون من سهولها قصوراً تسكنونها في الصيف، وتنحثون من الجبال بيوتاً تسكنونها في الشتاء^(٣).

ثالثاً: مكانة سيدنا صالح عليه السلام في قومه:

كان صالح عليه السلام معروفاً بالحكمة والنقاء وأفعال الخير، مرجواً لدى قومه قبل أن

(١) شمت: هو مخالطة البياض شعر الرأس، وهو بياض اللحية.

ومنه امرأة شمتاء أي: وخط رأسها الشيب. ولا يقال للمرأة: شبياء، ولكن يقال لها: شمتاء.

انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣٣٥ / ٧، تاج العروس، الزبيدي، ٤٨٩٩ / ١.

(٢) أخرجه، الحاكم في المستدرک على الصحيحين، ٦١٦ / ٢، رقم ٤٠٦٥.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري ٤٧٧ / ١.

يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ، يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

أي: قالوا: مؤملين برجاء خيرك؛ لعلمك وعقلك وصدقك وحسن تدبيرك، ثم خاب رجاؤنا فيك^(١). أتنهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا؟! ما كنا نتوقع منك أن تعيب آلهتنا التي وجدنا آبائنا عاكفين عليها.

وهكذا يعجب القوم مما يدعوهم إليه. ويستكرون ما هو واجب وحق، ويدهشون أن يدعوهم أخوهم صالح عليه السلام إلى عبادة الله وحده. وذلك لأن آباءهم كانوا يعبدون هذه الآلهة. فهم قوم يشركون بالله ويفسدون في الأرض ولا يصلحون، وقد دعاهم صالح عليه السلام إلى الإيمان بالله وإلى عبادة الله وحده لا شريك له بأسلوب جميل وحسن تأن، وطلب منهم أن يخلعوا عبادة الأصنام والأنداد، ولا يشركوا بربهم شيئاً، فأمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال.

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤٧٩/٢.

ذكر صالح عليه السلام في القرآن الكريم

ورد ذكر صالح عليه السلام في القرآن الكريم (٢٦) مرة، في (٢٢) سورة.
وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

الآيات	السورة
٧٩-٧٣	الأعراف
٦٨-٦١	هود
١٥٩-١٤٢	الشعراء
٥٣-٤٥	النمل

دعوة صالح عليه السلام

أولاً: معالم دعوته عليه السلام:

تتفق دعوة الرسل لأقوامهم في أصلها، وهو توحيد الله جل وعلا بالعبادة، فهم جميعاً، متفقون في ذلك.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

أما شرائعهم فإنها تختلف؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وفي الحديث المتفق عليه: (أن الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد). وفي رواية البخاري: (أولاد علات)^(١).

ومعنى الحديث: أن الرسل متفقون في أصول الدين، وعبر عن ذلك بأنهم أولاد علات، وأولاد العلات الإخوة من الأب، وأصله أن من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى كأنه عل منها، والعلل: الشرب بعد الشرب، فأولاد العلات الإخوة من الأب وأمهم شتى، وفي بعض الروايات: أمهاتهم شتى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾، ١٧٦/٤، رقم ٣٤٤٣. ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل عيسى عليه السلام، ١٨٣٧/٤، رقم ٢٣٦٥.

ودينهم واحد، فكنى عن توحيد دينهم باشتراكهم في الأبوة، فأصل الدين الذي هو التوحيد واحد وإن اختلفت فروع الشرائع^(٢).

وكان صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها، فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا، بل وذلك خطاب كل الأمم المكذبة لرسولهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسائل يحتجون على الرسل فيقولون: إن الرسل في العادة إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من عند أحد في الظاهر، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلا بد أن تأتينا بمعجزة وآية.

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ نَعْمَدَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَوْرُ عَبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وكان رد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقد أسس الله سبحانه وتعالى دعوة

(٢) انظر فتح الباري، ابن حجر ٦/٤٨٩.

لهم من سبل المهارة والقوة البدنية، ومما ملكهم من أساليب الفنون في البناء والزراعة والسقي، فهذه دعوة هادئة جميلة من هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

فقد قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ أي: هو خلقكم سبحانه من هذه الأرض، فقد كنتم تراباً فأنشأكم منها وفوقها.

﴿وَأَسْتَعْمِرَكُمْ﴾ أي: جعلكم تعمرون هذه الديار.

﴿فَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ أي: عاملوا ربكم بما أنعم عليكم بأن تحسنوا عبادته، وأن تستغفروه سبحانه.

﴿إِنْ رِزْقِي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ أي: إن ربنا العظيم سبحانه قريب منا، فإذا استغفرناه غفر لنا، وهو مجيب يستجيب الدعاء، فادعوا ربكم يستجب لكم.

وكذلك يذكرهم تذكير الرفيق الشفيق فيقول لهم: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَخَذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَنْشُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

يقول الخازن: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ يعني: أن الله أهلك عاداً، وجعلكم ت خلفونهم في الأرض وتعمرونها، ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ يعني: وأسكنكم

أنبيائه على منهج التوحيد وجعله مناط الدعوة، ووضح ذلك في خطابه لهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وإذا كان الخطاب في الآيات السابقة ورد مجملًا، فقد ورد تفصيله في الآيات الآتية. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

ويقول تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

ويقول تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

فلما دعاهم لعبادة الله وترك الأوثان، وألح عليهم بالوعيد والعذاب الشديد. فهو هو هنا يذكر قومه، ويدعوهم مترفقاً بهم منوهاً بنعم الله عليهم وأفضاله من الإنشاء في الأرض بوراثتها وإعمارها، وبما هيأ

وراثتهم لقوم عاد وما مكنهم الله فيه من البناء، ففي هذه الآية ذكرهم بوجود أفراد الله تعالى بالعبادة.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلِإِنْ تُمُودَ أٰهٰهُمْ صٰلِحًا قَالِ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هٰذِهِ نَاقَةُ اللّٰهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَنذَرُوہَا فَاَكُلُوا فِيْ اَرْضِ اللّٰهِ وَلَا تَمْسُوہَا يَسُوًّا فَيَاْخُذْكُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

ويأتي ردهم: ﴿قَالَ اٰمَلًا الَّذِيْنَ اٰسْتَكْبَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِيْنَ اٰسْتَضَعِفُوْا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اَتَعْلَمُوْنَ اَنْتَ صٰلِحًا مَّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهٖۤ قَالُوْا اِنَّا بِمَا اُرْسِلَ بِهٖ مُّؤْمِنُوْنَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأعراف: ٧٥].

طلبوا منه أن يخرج لهم آية في عيدهم، دالة على صدقه عنادًا ونفاقًا، فأتاهم الله الناقة آية بينة، فأصروا على عنادهم، بل استمروا في غيهم حتى يؤمنوا به ويصدقون رسالته، فدعا الله فأخرج لهم الناقة مع فصيلها بالأوصاف التي طلبوها من صخرة^(٤).

(٤) خروج الناقة بهذه الصفة، وطلبهم لها ذكرها الخازن: ٢٢٠/٤، وأبو السعود: ٢٤١/٣، وصاحب أضواء البيان ١٨/٧ وغيرهم. والمعجزة التي أوتيتها سيدنا صالح عليه السلام، تناسب ما مهر فيه قوم صالح، فقد كان لهم ولع بالنحت بالصخور، فعملوا للمنازل لهم واجهات من الصخور لازالت تحكي تمكينهم وعظمة فنهم في النحت، ولذلك كان طلبهم

فِي الْاَرْضِ تَنَحِّيْذُوْنَ مِّنْ سُهُوْلِہَا فُصُوْرًا﴾ يعني: تبنون القصور من سهولة الأرض؛ لأن القصور إنما تبنى من اللبن والاجر المتخذ من الطين السهل اللين، ﴿وَنَتَجِئُوْنَ اَلْجِبَالَ يُّوْتًا﴾ يعني: وتشقون بيوتًا من الجبال^(١). وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء. وهذا يدل على أنهم كانوا متمتعين مترهفين.

﴿فَاذْكُرُوْا ءَاِلٰهَ اللّٰهِ﴾ أي: فاذكروا نعمة الله عليكم واشكروه عليها، ﴿وَلَا تَعْتُوْا فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِيْنَ﴾ أي: ولا تسيروا في الأرض مفسدين فيها، والعثو أشد الفساد^(٢).

وقيل: أراد به عقر الناقة. وقيل: هو على ظاهره، فيدخل فيه النهي عن جميع أنواع الفساد. وفيه وجهان:

أحدهما: أنه السعي في الباطل. والثاني: أنه الفعل المؤدي لظير فاعله. وفي الإفساد الشديد وجهان أيضًا: أحدهما: لا تعملوا فيها بالمعاصي. والثاني: لا تدعوا إلى عبادة غير الله^(٣).

فسيدنا صالح عليه السلام يذكرهم

- (١) لباب التأويل، الخازن، ٢٢١/٢.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، ١٤٢/١.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٢٣٦/٢.

ويجادلهم في موضع الجدل، مؤكداً على أن عبادة الله هي الحق، والطريق المستقيم. ولكن قومه تماردوا في كفرهم، وأخذوا يدبرون له المكائد والحيل حتى لا يؤمن به أكثر الناس، وحينما كان صالح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها، فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا.

بل وذلك خطاب كل الأمم المكذبة لرسولهم الذين بعثوا إليهم: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥].

أي: كان هذا احتجاجهم في رد الرسائل يحتجون على الرسل فيقولون: إن الرسل في الشاهد إنما يجيئون من عند المرسل، وأنتم نشأتم بين أظهرنا لم تأتونا من عند أحد في الظاهر، ولا نرى لك خصوصية لا في الخلقة ولا في القدرة والمال وغيره، وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلا بد أن تأتينا بمعجزة وآية.

قال تعالى: ﴿وَالَيْكَ تَحْمَدُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْفَرُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وكان رد الرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وكانت مميزة بكثرة لبنها وشكلها رغم أنها آية من الله وحجة ظاهرة، أصبروا على عنادهم، وعتوا من أمر ربهم وتجرؤوا على انتهاك حرمة الله فعقروا الناقة، فحق عليهم الهلاك، وحق عليهم كلمة العذاب. ولما عقروا الناقة وعدهم سيدنا صالح بالهلاك بعد ثلاث أيام، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وقد ذاقوا مرارة الترقب والانتظار خلال تلك الأيام، فلما اكتملت الأيام الموعودة آتاهم العذاب صبيحة يوم نحس، فأخذتهم رجفة شديدة زلزلت بهم الأرض، وصاعقة محرقة من فوقهم، وصيحة واحدة مفزعة قطعت نياط قلوبهم وتركتهم أجساداً بلا أرواح، وبقيت مساكنهم وديارهم عبرة على من الأيام والعصور^(١).

ثانياً: أساليب دعوته عليه السلام:

١. أسلوب الترغيب.

كان صالح عليه السلام يخاطب قومه بأخلاق الداعي الكريمة، وآدابه الرفيعة ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة.

أن يخرج لهم ناقة من الصخر. فأخرجها لهم بأجمل ما يكون، فهي ليست صخرة جامدة، ولكنها ناقة على هيئة كاملة تسير بينهم مع فصيلها.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/٩، فتح القدير، الشوكاني ٥٠٨/٢.

٢. أسلوب التهيب.

إن التدرج في الدعوة والتهويد في الترغيب فضلاً عن التهيب من أوليات المنهج السليم لدى الدعوة، وكان هذا شأن الرسل والأنبياء مع أقوامهم ﴿فَلَنَجْجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

أي: سنة الله في الأولين أنهم إذا كذبوا رسلهم أهلكهم ﴿وَلَنَجْجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ومن سنة الله تعالى في عباده أن من اقترح آية على الأنبياء وأتوه بها فلم يؤمن؛ عجل الله هلاكه.

أما منهج نبي الله صالح عليه السلام في أسلوب دعوته، فلا يختلف عن منهج وأسلوب أخويه نوح وهود عليهما السلام.

فقد دعا قومه إلى إفراذ الله وحده بالعبادة دون سواه، وكان منهجه في دعوته لما بعثه الله رسولاً إلى قومه، دعاهم إلى التوحيد وإفراذ الله بالعبادة وطرح عبادة الأوثان، وكان أسلوبه رقيقاً مهذباً، لكن الكثير منهم رفض هذه الدعوة فأذوه، وهموا بقتله، وعقروا الناقة التي جعلها الله آية على صدقه، وقد كان حذرهم من قتلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر: ﴿وَإِلَّا تَتُوبَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾

[هود: ٦١].

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: فاسألوه أن يغفر لكم ما أشركتم وما أجرمتكم، ثم توبوا وارجعوا إليه كلما وقع منكم ذنب أو خطأ^(١).

﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهي دعاؤك إيانا إلى إفراذ العبادة لله، وترك ما كنا نعبد من الأنداد، والعدول عن دين الآباء والأجداد. ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (٦٢) قَالَ يَتَقَوَّمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) [هود: ٦٢-٦٣].

وهذا تطف من لهم في العبارة، ولين جانب، وحسن تأن في الدعوة لهم إلى الخير، أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه، ماذا عذرکم عند الله، وماذا يخلصكم من بين يديه، وأنتم تطلبون مني أن أترك دعائكم إلى طاعته. وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم، ولا من غيركم، أن يجبرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم. أو أي: غير أن تجعلوني خاسراً

(١) المنار، محمد رشيد رضا، ١٢/ ١٠١.

معجزة صالح عليه السلام

أولاً: خروج الناقة:

سأل قوم ثمود سيدنا صالح عليه السلام معجزة يخرجها لهم يريدونها، فقال لهم صالح عليه السلام: رأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتهم، أتؤمنون بي وتصدقوني وتعبدون الله الذي خلقكم؟

فقالوا له: نعم، وعاهدوه على ذلك، فقال صالح عليه السلام، وصلى لله تعالى، ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا.

وكانت الآية التي أوتيتها سيدنا صالح عليه السلام هي الناقة.

يقول تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وكانت الناقة بطلب من قومه ولم يأت بها من تلقاء نفسه؛ كما جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٠٣ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤].

وكذلك جاء في الحديث ما يصدق رأي طلبهم الناقة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: (لا تسألوا الآيات، وقد سألتها قوم صالح، فكانت أي ناقة ترد من

بإبطال أعماله وتعريضه لسخط الله تعالى، أو فما تزيدوني بما تقولون غير أن أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم: إنكم الخاسرون، فالزيادة، على معناه، والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من إنكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وإيتائه النبوة^(١)).

وقالوا له أيضًا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

أي: من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد. والمراد بالمسحورين المسحورين المخدوعين^(٢).

وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به وعينوا الآية التي يجب أن يخرجها لهم أمام أعينهم^(٣).

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٥.

(٢) معام التنزيل، البغوي، ٦/ ١٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٣٠٤٠.

هذا الفج^(١)، و تصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فمقروها^(٢).

وذكر أن قوم صالح هم الذين حددوا نوع الآية أن تكون ناقة، وكيفية خروجها وشكلها وأن تخرج أمام أعينهم من الصخرة في قبيلتهم^(٣).

وذكر ابن عطية عن بعضهم: أنه جاء بها من تلقاء نفسه من غير طلب^(٤).

والرأي الأول هو الأرجح والأصوب؛ لما ظاهره من نص الآية والحديث.

وقوله: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ يقتضي أن الناقة كانت حاضرة عند قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ لأنها الآية نفسها، والبينة: الحجة على صدق الدعوى، فهي ترادف الآية.

وقد عبر بها عن الآية في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُتَفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

و﴿هَٰذِهِ﴾ إشارة إلى الناقة التي جعلها الله آية لصدق صالح عليه السلام، ولما

كانت الناقة هي البينة كانت جملة: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ منزلة من التي قبلها منزلة عطف البيان^(٥).

لقد تكررت كلمة (الناقة) في القرآن سبع مرات في القرآن الكريم، في سياق قصة ثمود مع نبيهم صالح عليه السلام. في دلالات ومعان مختلفة ليس فيه تكرار، كما توضحه الآيات أدناه:

قال تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آلِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

أي: آية ومعجزة ظاهرة شاهدة بنبوتي^(٦)، والبينة: الحجة على صدق الدعوى^(٧).

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

يقول أبو السعود: أي: نحروها، أسند العقر إلى الكل مع أن المباشر بعضهم للملابسة، أو لأن ذلك لما كان برضاهم، فكأنه فعله كلهم، وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه بحيث أصابت غائلته الكل ما لا

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٨.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٤.

(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٨.

(١) الفج: هو الطريق الواسع بين جبلين.

انظر: مختار الصحاح ص ٤٠١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٢٩٦، والحاكم في المستدرک، کتاب التفسیر، ٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨.

وحسنه ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٨٠.

(٣) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٨٣. وانظر: معاني القرآن وإعراجه، الزجاج، ٩/ ٣٤٩، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٣٨.

(٤) انظر المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٤٢١.

يخفى^(١).

وَلَكَّرَ شَرِبَ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ [الشعراء: ١٥٥].

هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها سقيها في أرض ثمود، ترعى الشجر وتشرب الماء.

وكانت ترد الماء غيبًا، فإذا كان يوم ورودها وضعت رأسها في بئر في الحجر، يقال لها: بئر الناقة، فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها، فلا تدع قطرة، ثم ترفع رأسها فتفحج لهم، فيحلبون ما شاؤوا من لبنها فيشربون ويدخرون، حتى يملؤوا أوانيهم كلها. ثم تصدر الناقة من غير الفج الذي وردت منه، ولا تقدر أن تصدر من حيث وردت، حتى إذا كان من الغد، كان يوم ثمود فيشربوا ما شاء الله من الماء ويدخرون ما شاؤوا ليوم الناقة، فهم على ذلك في سعة ودعة.

وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي فتهرب منها مواشيهم، فتهدب إلى بطن الوادي فتكون في حره وجده، وإذا كان الشتاء فتشتو الناقة في بطن الوادي؛ فتهرب المواشي إلى ظهره، فتكون في البرد والجذب.

فأضر ذلك بمواشيهم للأمر الذي يريده الله بهم والبلاء الاختبار، فكبر ذلك عليهم، فعتوا عن أمر ربهم، وحملهم ذلك على عقر^(٦).

(٦) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٢٢.

إنها خرجت من حجر، وفي هذا أعظم الآيات، ويقال: إنها كانت ترد الماء لا ترد الماء معها دابة، فإذا كان يوم لا ترد، وردت الواردة كلها، وفي هذا أعظم آية^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَيَنْقُورُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ قَدْ رُوحَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسْوَ فَإِذَا خَذُ عَذَابُ رَبِّ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ٦٤].

يقول: دعوها ترتع في أرض الحجر ولا تمسوها بسوء، ولا تعقروها، فإخذكم عذاب أليم، وهو ما عذبوا به^(٣).

يقول ابن عاشور: لأنهم إذا مسها أحد بسوء، عن رضى من البقية، فقد دل ذلك على خلعتهم حرمة الله تعالى، وحنقهم على رسوله عليه السلام^(٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَإِنَّا ثُمَّدُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

أي: آية مفيدة للبصيرة والحجة على صدق رسولهم^(٥).

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَكُمْ شَرِبَ﴾

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٢٤٣.

(٢) معاني القرآن وإعرايه، الزجاج، ٣/ ٥٩.

(٣) تفسير السمرقندي، ١/ ٥٤٤.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٨/ ١٦٩.

(٥) المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٧١.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧].

أي: باعثوها ومخرجوها من الهضبة التي سألوا، وذلك أنهم تعتوا على صالح، فسألوه أن يخرج لهم من صخرة حمراء ناقة عشراء، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةً﴾ أي: محنة واختباراً ﴿لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي: فانتظر ما هم صانعون ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي: على أذاهم ﴿وَبَيِّنْهُمْ﴾ أي: أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الناقة وبينهم، لها يوم ولهم يوم^(١).

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣].

أي: ذروا ناقة الله ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ ولا تدودوها عنها في نوبتها^(٢).

وقد جعل الله عز وجل الناقة آية مبصرة لثمود.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنبَأْنَا ثَمُودَ أَنَّا نَاقَةُ مِجْرَةٍ فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنبَأْنَاهُمْ مَّا بَيْنَنَا فَكَانُوا عَنْهَا

مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١].

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أتى أصحاب الحجر آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء والإضراب عنه^(٣) وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض - بالضم - وهو الجانب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثنى عطفه ملتفتاً صاداً^(٤).

ولم يبين جل وعلا هنا شيئاً من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع أخرى، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم: تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جمة: كخروجها عشراء وبراء جوفاء من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها، وعظمتها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُزْ شَرِبٌ يَوْمَ مَقْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقال: ﴿وَبَيِّنْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ تُخْضَرُ﴾ [القمر: ٢٨]^(٥).

روى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال: (لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ٧٦/١.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٦٧/٧.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١١٧/٨.

(١) المصدر السابق، ٢٢٠/٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢٠/٧.

به إليهم رسولنا صالحاً^(١).

وهذه الآيات يدخل فيها الناقة دخولاً أولياً لأنها ذكرت في القرآن الكريم، ولكن عدم ذكر غيرها لا يدل على أنها هي الآية الوحيدة التي أعطيت لسيدنا صالح عليه السلام، حتى يضطر لحمل الآيات على الناقة فقط، فهذه الآيات تشتمل على الحجج والبراهين الكونية الدالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته، ولا شك أن صالحاً عليه السلام قد ذكر قومه بهذه البراهين والآيات، وقد تكون الآيات التي كذبوا بها غير هذه الآيات^(٢).

قال البيضاوي: ﴿وَمَا يَنْتَهُمْ مَا بَيْنَنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١] يعني: آيات الكتاب المنزل على نبيهم أو معجزاته المتضمنة في الناقة من سقيها وشربها وغيره، أو ما نصب لهم من الأدلة^(٣).

وبعد أن أخرج الله لهم الناقة بالكيفية التي طلبوها طلب منهم صالح عليه السلام الوفاء بعهدهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم في أمور منها:

أولاً: الإيمان بالله جل جلاله ونبذ عبادة الأوثان والتصديق برسالة صالح.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِكِنْ تَمَوَّدَ أَخَاهُمْ

صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ ۖ﴾ [الأعراف: ٧٣].

فاقتران الدعوة إلى التوحيد بالإشارة إلى الناقة يدل على أنه طلب منهم الإيمان عقب مجيئها.

ثانياً: تقسيم الماء بينهم وبين الناقة، فلقوم صالح عليه السلام يوم وللناقة يوم، في يومهم لا ترد الناقة الماء، فيأخذون ما يكفيهم ويكفي بهائمهم، وفي يوم الناقة لا يردون الماء.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرَبٌ وَلَكُمْ شَرَبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْتَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلٌّ شَرْبٌ خَفِيفٌ﴾ [القمر: ٢٨].

كما حذرهم صالح عليه السلام من نقص حصة الناقة من الماء، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسَقَيْنَهَا﴾ [الشمس: ١٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي: احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ولا تعتدوا عليها يوم سقيها، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم^(٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٥٢.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٥٣١/٧.

(٢) انظر: البحر المحیط، أبو حيان ٣٧٧/٥، روح المعاني، الألويسي، ٦٠/١٠.

(٣) أنوار التنزيل، ١/ ٥٣٤.

السلام، فقد أمر أن ينتظر، يرتقب ما يؤول إليه أمرهم بعد هذا الامتحان، وأن يصبر عليهم حتى يأتي الفرج من الله. إلا أن قوم ثمود خسروا الامتحان و نكثوا العهد و أصروا على الكفر والتكذيب وبذلك حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب، وكذلك عتوا في الضلال والعناد وضاقوا ذرعاً بالناقة ويوم شربها، وكبر عليهم رؤيتها تجوب، وديانهم وحقولهم شاهدة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [١٥٧] ﴿فَلَاخِذْهُمْ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

والربط بين عقر الناقة وهلاك القوم (بالفاء) في هذه الآيات كلها يدل دلالة واضحة على أن عقرها كان السبب المباشر لهلاكهم^(٢).

والعقر: ضرب قوائم البعير أو الشاة بالسيف^(٣). وأطلق العقر مكان النحر من باب إطلاق

ثالثاً: أن لا تمس الناقة بأي سوء، وقد حذرهم من مساس الناقة بسوء تحذيراً صارماً واضحاً، ونبههم بأنه يستدعي العذاب العاجل.

قال تعالى حكاية عن سيدنا صالح عليه السلام: ﴿وَإِن تَمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذَا نَقِصَةُ إِلَهِكُمْ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

فقد اقتصر النهي في هذه الآيات عن مس الناقة بسوء، فلم ينههم عن عقرها أو قتلها. وفي ذلك لطيفة عبر عنها ابن عاشور بقوله: «وأنيط النهي بالمس بالسوء؛ لأن المس يصدق على أقل اتصال شيء بالجسم، فكل ما ينالها مما يراد منه السوء فهو منهى عنه»^(١).

وقد كان خروج الناقة ابتلاء لثمود، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مَرْسَلْنَا النَّاقَةَ فَنَنَاقَهُمْ فَأَرْقَبَهُمْ وَأَصْطَبِرَ﴾ [القمر: ٢٧].

فهي ابتلاء لثمود أيؤمنون بصالح عليه السلام كما وعدوه بذلك، أم ينكصون ويكفرون؟

وكان الابتلاء عدم مساسهم بالناقة بسوء وتقسيم الشرب بينهم. أما صالح عليه

(٢) انظر: أسباب هلاك الأمم، سعيد بابا سيلا، ٤٠٣.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٠٣٥.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٢٩١.

اسم المسبب على السبب (١).

وعلى الرغم من استجابة سيدنا صالح عليه السلام لقومه في إخراج الناقة من الصخرة، وتحذيره لهم، فإنهم كانوا قومًا مفسدين، فلم يستجيبوا لنداء الله تعالى ولا لتحذير رسوله فعقروا هذه الناقة.

ويأتي البيان الإلهي ليصف هذا التعدي على حدود الله وعاقبة ذلك. لتأمل الآيات الثلاث الآتية:

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (هود: ٦٥).

فهذه الآية تحدثت عن وعد صالح عليه السلام لهم بالعذاب جزاء فعلتهم.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرْ هُوَ أَتَدِمِينَ﴾ (الشعراء: ١٥٧).

ثم تأتي هذه الآية لتعبر عن ندمهم لأنهم أدركوا أن العذاب واقع لا محالة.

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (الشمس: ١٤).

وفي هذه الآية الثالثة جاء التصريح بوقوع العذاب مباشرة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾. إذن جاء التدرج الزمني للأحداث عبر الآيات الثلاث من الوعد بالعذاب إلى اقتراب هذا العذاب حيث لا ينفع الندم،

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٣٦٥/٥.

وأخيرًا وقوع هذا العذاب.

ومع أن هذه الآيات متباعدة من حيث النزول ومن حيث الترتيب في القرآن، فقد جاءت متناسقة ومتدرجة، وتعبر تعبيرًا دقيقًا عن حقيقة هذه القصة.

وقد أسند العقر إلى قوم صالح عليه السلام جميعًا مع أن الذي باشره شخص واحد منهم، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْنَهَا ۖ إِذْ أُنْبِئَتْ أَشَقُّهَا﴾ (الشمس: ١١-١٢).

وذلك لأنهم كلهم كانوا متواطئين على عقرها راضين به.

قال الطبري رحمه الله: «عن رضا جميعهم قتلها قاتلها وعقرها من عقرها، ولذلك نسب التكذيب والعقر إلى جميعهم» (٢).

وقد سعى في قتل الناقة تسعة رجال من ثمود كانوا يحرضون من قتلها يدفعونه دفعًا.

قال تعالى: ﴿فَادَا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ (القمر: ٢٩).

وبهذا فالقبيلة مشتركة في قتلها جميعًا لا ذلك الرجل العام (٣)، ولا التسعة

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٤/١٥.

وانظر: الكشف، الزمخشري ١٧٢/٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤٢٣/٢، مفاتيح الغيب ١٧٢/٧.

(٣) العام: هو الشرير المفسد المخبيث، وقيل: القوى الشرس.

انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٨٨/١٧.

وقال آخرون: إنه دخل في صخرة، فغاب فيها، والله أعلم.

فلما فعلوا ذلك وبلغ الخبر صالحًا، فجاءهم وهم مجتمعون، فلما رأى الناقة بكى، وقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

[انظر: ثمود: موقف قوم ثمود من رسولهم عليه السلام]

المفسدون.

قال الطبري رحمه الله تعالى: إن الذي عقر الناقة أشقى ثمود يسمى قدار بن سالف، وكان أحد التسعة المفسدين الذين قال تعالى فيهم ^(١): ﴿وَكَاثِبُ الْمَدِينَةِ تِسْعَةً رَهْطًا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

وقد جاءت صفته في الحديث الصحيح الذي ذكره الإمام البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن زمعة رضي الله عنه قال: (خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر الناقة، وذكر الذي عقرها فقال: ﴿إِذْ أَنْبَعَتْ أَشَقْنَهَا﴾ انبعث لها رجل عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة) ^(٢) الذي ظن أن منعته في قومه تحميه من العذاب الموعود به على عقر الناقة.

فكانت جريمته هذه والتي ماله عليها قومه سببًا في إنزال الهلاك بهم، فأتاهم الله سبحانه وتعالى بعذاب الصيحة، فهي صيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم، و تركتهم أجسادًا هامدة.

أما ولد الناقة فيقال: إنهم ذبحوه مع أمه.

النهاية في غريب الحديث ٢٢٣/٣.

(١) جامع البيان، الطبري، ٥٦١/١١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾، ١٦٩/٦، رقم، ٤٩٤٢. ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون، ٤/٢١٩١، رقم ٢٨٥٥.

نجاة صالح عليه السلام

أولاً: سيدنا صالح عليه السلام يطلب من قومه الاستغفار والتوبة:

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَتَوَدَّ آخَاَهُمْ صَالِحاً قَالَ يَقُولُ أَغْبَدُوا لِلَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ۝﴾ [هود: ٦١] فإن ما خصكم الله تعالى من فنون الإحسان داع إلى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح^(١).

فللاستغفار آثارٌ عقدية وثمارٌ إيمانية جليلة: منها: إنابة العبد إلى ربه، واعترافه بذنبه وإقراره به (أن له رباً يغفر الذنوب)، وتنشأ فيه تربية الخشوع والخضوع في نفسه، ويذوق به حلاوة تلذذه بالتذلل بين يدي ربه.

ويعتبر بسر وجوده والإنشاء من الأرض، فيعلم أن وجوده من وجود خلق أبيه آدم عليه السلام من الأرض؛ لأن إنشاء إن شاء لنسله، وإنما ذكر تعلق خلقهم بالأرض لأنهم كانوا أهل غرس وزرع، كما قال في: ﴿أَتَتَّكُونَ فِي مَا هُمْنَا ءَامِينَ﴾ ١٥٦ ﴿فِي جَنَّتٍ وَغُيُبٍ ۝ ١٥٧ وَزُرُوعٍ وَنَحْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝ ١٥٨﴾ [الشعراء ١٤٦ - ١٤٨].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٦٣.

ولأنهم كانوا ينحتون من جبال الأرض بيوتاً، وبينون في الأرض قصوراً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ مُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً﴾ [الأعراف: ٧٤].

فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمة إنشائهم من الأرض، فلاجل منافعهم في الأرض قيدت نعمة الخلق بأنها من الأرض التي أنشئوا منها، ولذلك عطف عليه: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾.

ثانياً: قوم صالح يسعون في قتل رسولهم:

بعد عقر قوم ثمود للناقاة، عزم أولئك النفر التسعة على قتل صالح وسعوا في تنفيذ ذلك فجاءوه ليلاً ليفتكوا به، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم حجارة فقتلتهم قبل قومهم. فأحبط الله بذلك مخططات القوم الكافرين وخدعتهم، وأنقذ صالحاً من بين يدي من أرادوا به سوءاً^(٢).

وبقي قومه على إعراضهم وعدم رغبتهم في الاستجابة له، أخبرهم بما سيصيبهم من هلاك خلال ثلاثة أيام: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ۝﴾ [هود: ٦٥].

(٢) التفسير القرآني للقرآن الكريم، عبد الكريم الخطيب ١/ ٧٧.

أسرعت تسعى إلى قومها، فأتت حياً من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، ثم استسقتهم من الماء، فلما شربت ماتت (٣).

ثالثاً: نجاة سيدنا صالح عليه السلام من غدر قومه:

أما إنجاء الله تعالى نبيه صالحاً، ومن آمن به وإهلاكه ثمود، فقد أوضحه جل وعلا في مواضع من كتابه؛ كقوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنِي سَالِحَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ۝٦٧ كَانُوا لَمْ يَنْتَوِا فِيهَا إِلَّا نَحْوَ مِائَةِ سَاعَةٍ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ﴾ [هود: ٦٦-٦٨].

وآيات سورة هود هذه، قد بينت أيضاً التدمير المجمل في آية سورة النمل هذه، فالتدمير المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

بينت آية سورة هود أنه الإهلاك بالصيحة، في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ أي: وهم موتى.

وأما كونه جعل إهلاكه إياهم آية، فقد أوضحه أيضاً في غير هذا الموضع؛ كقوله

وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة الثلاث، ووجوههم كانت مصفرة، كما وعدهم صالح عليه السلام.

وأصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة، ووجوه كانت محمرة. وأصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة.

فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب ومع الشروق، جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة (١)، لم تبق منهم باقية.

يقول تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِئَرِهِمْ جَثِيمِينَ ۝٦٧ كَانُوا لَمْ يَنْتَوِا فِيهَا إِلَّا نَحْوَ مِائَةِ سَاعَةٍ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَاقِيَةٌ﴾ [هود: ٦٧-٦٨].

فصاروا صرعى لا أرواح فيهم. ولم يفلت منهم أحداً، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى؛ إلا جارية واحدة كانت مقعدة، اسمها: كلبة ابنة السلق (٢).

وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام، فلما رأت ما رأت من العذاب

(١) انظر: تفسير البيضاوي ٤٩٧/٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٧٩/٣.

(٣) انظر: المصدر السابق ٤٤٢/٣.

الدروس المستفادة من قصته عليه السلام

١. إن الهدف من قصص الأنبياء وأممهم في القرآن الكريم، جاء من أجل العظة والعبرة.

التي يجب أن يتلمسها الإنسان في أخبار الأمم الماضية، وأن يتدبر ويتمعن في نتائجها. قد لفت الله عز وجل أنظار البشر لأعمال وآثار الماضين منهم، بهدف التأمل والاتعاظ بما حل بتلك الأقوام من كوارث أصابتهم، وما نزل عليهم من العذاب، بسبب جحودهم وإعراضهم عن الإيمان وتكذيب رسلهم.

٢. تقوى الله تعالى هي وصية الرسل الكرام.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَتَّقُونَ﴾ (١٣٤) [الشعراء: ١٢٣-١٢٤].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٤١) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٤٢) [الشعراء: ١٤١-١٤٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٦٠) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١٦١) [الشعراء: ١٦٠-١٦١].

وهي وصية السلف الصالح رضوان الله عليهم، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبته: «أما بعد، فإنني

تعالى فيهم: ﴿فَمَقَرُّهَا فَأَصْبَحُوا نَارِيبِينَ﴾ (١٣٧) ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٨) [الشعراء: ١٥٧-١٥٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١] يعني: أهلكناهم، أي: التسعة. قال ابن عباس: أرسل الله الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه فأتت التسعة دار صالح شاهرين سلاحهم، فرمتهم الملائكة بالحجارة وهم يرون الحجارة ولا يرون الملائكة، فقتلتهم وأهلك الله جميع القوم بالصيحة وقومهم أجمعين، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: بظلمهم وكفرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعبرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي قدرتنا وأنجينا الذين آمنوا^(١).

(١) لباب التاويل، الخازن، ٣/ ٣٥٠.

أوصيكم بتقوى الله»، ولما حضرته الوفاة، وعهد إلى عمر رضي الله عنه دعاه فوصاه بوصيته قائلاً: (اتق الله يا عمر..)، وكتب عمر رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله: «أما بعد فإنني، أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك».

٣. إن من تولوا السعي في عقر الناقة من قوم صالح تسعة، ولكن الله أهلك بسببهم خمسة آلاف بيت.

قال تعالى: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٥٠ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٥١ [النمل: ٥٠-٥١].

وذلك لأن بقية القوم راضون على فعلهم وسكتوا عنهم، ولم يأخذوا على أيديهم.

٤. الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي إلا بانتها الباطل.

وأن العمل بمعاصي الله تعالى هو الفساد في الأرض، والعمل بطاعته هو الإصلاح في الأرض.

٥. بيان قدرة الله في إهلاك الأمم العاتية والشعوب الظالمة.

وهو ما أنكره أهل مكة. كما يجب التحذير من عذاب الله ونقمته، فإنه تعالى بالمرصاد فليحذر المنحرفون عن سبيل الله والحاكمون بغير شرعه والعاملون بغير هداية

أن يصب عليهم سوط عذاب.

٦. في ذكر قصص الأمم السابقة تسليية للرسول صلى الله عليه وسلم والتخفيف عنه إذ كذبت قبل قرش ثمود وغيرها من الأمم، كأصحاب مدين وقوم لوط وفرعون.

٧. في ذكر قصص الأمم المهلكة عبرة وعظة للدعاة في تحمل الأذى ودعاوى المدعويين وتكذيبهم، وأن معية الله تعالى في وعده ووعيده لا يتخلفان عن نصرة الحق، بإهلاك المكذبين أو انتصار الدعاة.

٨. بقاء بيوت الظالمين خاوية، لتكون آية وعبرة للمعتبرين.

ويجب أن تكون زيارتها سبباً في استحضار سبب الهلاك والتدمير الذي حاق بهم بسبب تكذيبهم وظلمهم لأنفسهم، وعلى المسلم أن يكون دائم الوعي بسنن الله في هلاك الأمم ليتجنبها.

موضوعات ذات صلة:

ثمود، شعيب عليه السلام، عاد، مدين، هود عليه السلام، نوح عليه السلام